النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي "الآداب"

لبنان

الثقافة .. والنظام في لبنان !

ان مشكلة ـ او مأساة ـ اللغة العربية وآدابها جزء من مشكلة التربية في لبنان .. واي حديث عن التطوير والتجديد في برامج الادب ، ضمن علاقات النظام السائدة ، ما هو الا تضليل وعبث، قد يتناول بعض المناحي الهامشية ، ولكنه اعجز من ان يمس الجوهر او الاساس .

ولا غرابة في هذا ، ما دامت بقية التربية والثقافة ، كأي بنية فوقية أخرى ، محصلة متكاملة يفرزها النظام القائم ، بصرف النظر عن مضمونه الاجتماعي والسياسي ، ثم يطوع مظاهرها واتجاهاتها حتى تكون في خدمة اهدافه وغاياته المتوخاة . وهكذا تنشأ بينهما علاقة جدلية واضحة المعالم ، ومن هنا فان فهم الامر يقتضينا بالضرورة الحديث عن مقومات نظامنا تطلعا الى استكشاف ملامحه العامة وسماته المميزة .

* * *

يقوم النظام اللبناني على ركائز اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية ، يمثل تكاملها المحور العام الذي يضفي على هذا النظام لونا من العصرية ، كما يمده باسباب البقاء والاستمرار ... ونحن ، وان كنا لا نتوخى القيام بدراسة تفصيلية وافية في هذا الجانب كي لا نخرج عن نطاق موضوعنا المحدد ، نرى ان نكتفي بعرض سريع موجز ينير السبيل ويلقي بعض الضوء على خطواتنا .

فمن الناحية الاقتصادية ، يقتصر النظام على اداء دور الوسيط بين السوق الامبريالية وبين السوق العربية : الاولى تستغل وتنهب ، والثانية تستغل وتستنزف ، وهو الوسيط المأجور لقاء عمولة عينية . وقد رضي النظام بهذا كله ، فكيف علاقات الانتاج وفق مقتضياته ، واذا الاقتصاد اقتصاد خدمات ، واذا هو اقتصاد تتحكم فيه برجوازية مصرفية ـ تجارية متحالفة مع بقايا اقطاع سياسي يوشك ان يفقد قدرته وفاعليته . وهذه البرجوازية ذاتها عميلة مغامرة من حيث كونها غير منتجة بالمفهوم الاقتصادي من ناحية ، ومن حيث وجود رأسمالها خارج البلاد من ناحية ثانية .

وطبيعي ان استمرار هذا الدور يتطلب مواصفات خاصة : ليس اقلها خطرا تعمد ابقاء الطبقات المستغلة في حالة من القصور الفكري والتخلف الحضاري بحيث لا تعي مصالحها الحقيقية . ومن هنا كانت المحاولات الدائبة لابقاء الثقافة حكرا على طبقة معينة ، اذ الهدف الرئيسي منها هو امداد سوق الخدمات بحاجتها من الموظفين والكتبة متوسطي المعرفة .

ولو تقدمنا خطوة نحو الناحية الاجتماعية لصادفتنا تعقيدات مضللة هدفها الاساسي اخفاء ملامح الصراع الطبقي الذي بدأ يبرز هادئا حينا ، متفجرا على استحياء حينا اخر ، وان كان في كلا الحالين يضع الطبقة البرجوازية المتحكمة في مواجهة البؤساء والكادحين الذين يخشى ان تنكشف لهم مكامن الاستغلال واساليبه ... وهكذا ينحرف ـ او يحرف بعبارة اصح ـ الصراع ليتخذ شكل صراع طائفي تارة ، او عشائري تارة اخرى . وهكذا ايضا يبقى رجال الدين والساسة التقليديون محركي الاحداث وصانعي الاخبار ، ومن ثم تسخر الثقافة لمناضدة اغراضهم ومخططاتهم .

واما من الناحية الفكرية فالقضية التي تطرح انما تتمثل في الصدام القائم بين نمطين فكريين : التفكير القدري الغيبي ، ثم التفكير المنهجي العلمي . وواضح انحياز النظام الى النمط الاول ، على الرغم من محاولات التضليل الجاهدة والمستمرة ، لان في دوامه وازدهاره بقاء النظام واشتداد عوده . وكيف لا ، والنمط الثاني لا بد وان يدفع الجماهير الى التفكير والتأمل ، ثم الى البحث والتساؤل ، ثم الى التمرد والثورة متى احست الغبن والظلم وادركت عللهما ؟.. ومن هنا جاءت محاولات التضليل مقنعة بافنعة الحرص والاخلاص للتراث : وهكذا كان الارتداد الى الماضي بحثا عن نماذج مثالية قد تكون مفيدة في اقناع الناس لما تثيره في نفوسهم من شعور العزة والكرامة بحضارة امتازت بالخلق والابداع في ظروفها التاريخية ، وان كانت ، بسبب هذه الظروف ايضا ، قد عاشت ضمن نطاق ديني غالبا ، ما زالت الايام بتواليها تحيل معطياته الى ما يشبه الاساطير والخرافات .

وتتفاعل هذه العناصر الثلاثة متكاملة لتفرز نظاما سياسيا يلائمها ويواكبها : واجهة ديموقراطية برافة زاهية تتعدد رؤوسها ورؤساؤها ، وحريات مقننة مزيفة حتى حرية الاضراب والنظاهر ، واستقلال فردي انانى يمثل مكانه المرسوم في لعبة الحكم والسياسة ، واقطاب سياسيون قد برعوا في اداء ادوارهم على خشبة المسرح العام ، لكثرة مرانهم ، ولبراعة الملقن القدير ، ثم مشاكل يومية مفتعلة وصغيرة تستنفد الجهد والتفكير ... ومن هنا كان النجاح الهائل في اغراق المواطن في دوامة من التمزق والضياع والقلق والحيرة ، انتهت به اخيرا الى نوع من الاستهتار واللامبالاة .

تلك هي بايجاز قسمات النظام .

والآن ، الى أي مدى جاءت برامجنا التربوية محققة اهدافه المرجوة ؟

انطلاقا من منهاج الادب العربي الجديد سنحاول الاجابة ، متوخين الموضوعية قدر الامكان . هذا مع الاقرار بأن التعميم قد يجانبه الصواب احيانا ، ولذا نرجو ان نرى دراسات قادمة تتناول جوانب اخرى من مواد التعليم الرسمي .

وعلى الرغم من هذا الاحتراز الضروري تبقى المحاولة جديرة بالتأمل والتاني ، ومن ثم نستطيع ان نحدد اهداف النظام تربويا كما يلي :

١ ـ السعي الدائب في سبيل خلق نمط فكري معين يكون في خدمة المعطيات الآنفة ... وقوام هذا النمط الفكري قدرية غيبية مفرطة ، وتشجيع النزعة الفردية بكل ما يترتب عليها من تقديم المصلحة الآنية الخاصة على المصلحة العامة الاصيلة ... وتبعا لهذا تم اختيار نصوص ادبية تعتبر نموذجية من حيث تحقيقها تلك المقاصد والغايات .

وقد يقول قائل : ما ذنبنا نحن ؟.. هذا هو الادب العربي ؟..

وهو كلام قد يخدع للوهلة الاولى ، ولكن يكفي لاظهار الخداع والمكر ان نذكر ادب الصعاليك والخوارج والقرامطة وسواهم ممن ناهضوا النظم الاجتماعية القائمة وثاروا على ما فيها من ظلم وبغي وطغيان .

وهب ان مثل هذا الزعم صحيح ؟.. أليس في الادب الحديث ما يغني ؟.

بلى ، لو استقام الامر ، وكان النظام غير ما هو عليه .

٢ ـ الاستماتة الجاهدة في عزل المثقف عن مجتمعه لئلا يتفاعل مع طبقاته الكادحة ، ولئلا يتكون عنده نوع من الوعي الاجتماعي الذي قد يدفعه الى ممارسة دوره الواجب في قيادة الجماهير وتنويرها . ومن هنا كانت النظرة الى الادب بمعزل عن المؤثرات الاجتماعية ، أي باعتباره

ظاهرة منفصلة لا رابط ولا تكامل بينها وبين سائر النشاطات الانسانية. وواضح ما في هذه النظرة من تجن على الواقع واحتقار لاكثر العقول سذاجة . ذلك ان الادب ما كان يوما الا تعبيرا عن واقع الامة الحضاري، فيه تتمثل خصائصها الذاتية ، وبه تتجلى تطلعاتها الانسانية .

٣ ـ الاهتمام المسرف بالكم على حساب النوع . مما يعني الاقتصار على المظاهر الخارجية الشكلية دون النفاذ الى الاعماق بقصد التعليل والتفسير ، ثم الحكم الواعي الدقيق ... وهكذا تنطلق برامجنا من العصر الجاهلي لسائر العصور التالية من اسلامية واموية وعباسية ، الى عصر الانحطاط فالنهضة ، مع التعريج على ادب الاندلس . ولولا بقية من حياء لكانت بدأت بآدم ، او بملاحم رأس شمرا في احسن الاحوال ... وطبيعي ان يكون هذا على حساب النوعية الجيدة والتعمق الخلاق ، وان يقود الى نتائجه الطبيعية من الزام التلميذ بنظرة جزئية قاصرة يتقوقع ضمنها بحيث يعجز عن الوصول الى تكوين منهج نقدي متكامل يستعين به في دراسة الادب وتقويمه ، وبحيث يعجز كذلك عن تكوين نظرة كلية الى قضايا الفن والحياة معا .

ولنا ان نتساءل هنا : ما هي الغاية من تدريس الادب ؟

أهي التأريخ له ؟..

اذا ، لا داعي للالحاح المسرف على طريقة الحوار وجعل النص اساسا وحيدا للدراسة ؟..

أهي مساعدة التلميذ على تكوين حس نقدي مرهف وذوق جمالي بصير ؟

اذا ، لا فائدة من كثرة النصوص وتقعرها مع امتدادها على طول التاريخ العربي ؟..

أهي الامران معا ؟..

اذا ، ماذا بقي للدراسة الجامعية ؟..

ومهما يكن فان جهابذة التربية أبعد ما يكونون عن التفكير في مثل هذه القضايا او الانشغال بها ... وسواء أكان الهدف هو الاول أم الثاني ، فقد اخطأوا الطريق بحيث وقعوا بين كرسيين .. وما بالك لو كان الامر الثالث هو المرجو والمنتظر ؟؟ ..!

لا مجال بعد ذلك لحسن الظن ، ما دامت الغايات واضحة جلية .

٤ ـ اغراء المثقف بالانسلاخ عن واقعه الطبقي ، والتعلق باحلام وتطلعات برجوازية مريحة . ولست ادري لماذا يداخلني شعور قوي ايضا بان الغاية الخفية انما هي تنفير المثقف العربي من تراثه وجعله يصاب بالعجز والذهول امام تيار الفكر الغربي الوافد ، ومن ثم يضحى قاصرا عن استخدام ملكاته العقلية الناقدة في التقييم والانتقاء . فاذا صدق مثل هذا الشعور لم يكن غريبا ان تأتي النصوص المختارة قصرا على الوان بعينها لا تخرج كلها عن فلك الطبقة الارستقراطية الحاكمة .

ولم يكن ذلك وليد الصدفة قطعا .

حقا ، لقد كان الشاعر العربي القديم ، بحكم الظروف الحضارية، مكرها على التوجه بادبه الى الطبقة الحاكمة ، اذ كانت الطبقة البارزة المتلقية للفن ، والتي تستطيع ان تمد الفنان باسباب التشجيع والبقاء الادبي ، وهكذا خضع لمفاهيمها ومثلها ومعتقداتها المختلفة املا في ارضائها والتقرب اليها ونيل الحظوة لديها .. ولكن ، على الرغم من ذلك كله ، وجدت فئة تأبى ان تضع نفسها او فنها الا في خدمة مبادئها وقناعاتها ، فاين هي من برامجنا ؟... طبعا ، المكان لا يتسع لزمرة من المشاغبين المتمردين الذين ناهضوا النظم السائدة حينذاك بكل ما تنطوي عليه من استغلال واضطهاد وعسف وتعنت ... وهل يعقل ان نعرض هذه المحرمات على تلاميذنا ؟!... أليس خطرا ان يعتادوا التفكير الحر المتوازن العلمي ؟!...

انه رجس قد يثير حنق النظام وسخطه ، ومن الخير الاعراض عنه .

٥ ـ النعي على الادب العربي ـ كمظهر من مظاهر الحضارة العربية ـ قصوره وعجزه ، وذلك باظهاره في صورة شائهة تتعمد اخفاء نقائصه الانسانية الشجية ، اذ تقدم بعض نماذجه المجزوءة المبتورة عن سياقها الحضاري . وهي تريد بذلك تحقيق اهداف متكاملة :

اولها ـ اعطاء انطباع ثابت بتفوق الحضارة الغربية ، وجعلها المثال الذي يحتذى ، ثم الطعن في قدرات العقل العربي ، وانه لم يستطع ترك أي ادب انساني . ونحن لا ننكر تفوق الحضارة الغربية في الوقت الحاضر ، ولكننا لا نستطيع ان نسلم بالنتائج التي يحاول استخلاصها دعاة هذه الحضارة بيننا : فالحضارة الغربية (واعني بها هنا حضارة اوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية) ليست كلها خيرا وصوابا ، والحضارة الغربية ليست هي المصدر الوحيد للفكر والعلم والثقافة ، والحضارة العربية ، لا سيما القديمة منها ، ليست بهذا القدر من السوء والقصور ... اذا ، بعض الرفق والاناة .

ثانيها ـ عزل لبنان حضاريا عن محاه الطبيعي المتمثل في العالم العربي .

ثالثها ـ تشجيع مدارس الارساليات الاجنبية وحفظ مصالحها الحيوية ، لان المدارس الرسمية اعجز من ان تستوعب الاعداد المتزايدة من التلاميذ .

رابعها ـ قصر الثقافة على طبقة معينة تؤهلها ظروفها المادية لان تتحمل نفقات التعليم الباهظة ، خاصة متى اضفنا عامل نجزئة الدراسة الثانوية الى مرحلتين ، لا مبرر لهما .

* * *

اذا ، تلك هي الاهداف والغايات المبيتة ، وتلك هي محاولات التمويه والخداع بالوان وظلال باهتة ، ولكنها عاجزة عن ان تخفي الشعار الحقيقي الكامن وراء عوامل التحرك المزيف ، هذا الشعار الذي يمكن ايجازه في كون « الثقافة في خدمة النظام » ، والذي غدا واقعا يوميا تتبناه مؤسسات النظام في حذر وترقب مرة ، وفي مجاهرة واقدام مرة اخرى ... وليس ذلك عجيبا ، فما دام العلم سمة العصر، وما دامت الدولة تدعي مسايرة الركب، فلا أقل من الحرص على التظاهر بتشجيع الثقافة ، ولكن مع تكييفها تكييفا يلائم « الواقع اللبناني الخاص » ، أي مصلحة الطبقة الحاكمة باساليبها الفذة في استغلال كل شيء ، ورغبتها المستميتة في خلق نموذج للانسان المتعلم ـ الجاهل .

وهكذا تتعالى نغمة شجية ، ولكنها بلهاء ، زاعمة ان لبنان هو « بلد الاشعاع والنور » منه انطلق الحرف ، ومنه كان رواد الحضارة الانسانية .

ولبنان قد عشق اللغة العربية قديما ، ولولا « وضعه الخاص » الآن لابدى من ضروب العشق الوانا والوانا ... ولكن حسبه انه متيم بالادب العربي ... وكيف لا ، وهو لا ينفك حريصا على الا يغادر كبيرة او صغيرة في هذا الادب الا احصاها وادخلها في منهاج البكالوريا ؟ وأي بأس عليه في ان ينظر الى الادب نظرة خاصة انسجاما مع « وضعه الخاص » ؟...

حقا ، لقد أسرف في اختيار النصوص، ولكن ذلك لم يأت اعتباطا :

فهي نصوص منسجمة ذات لون واحد ،

تتمثل فيها القدرية الدينية تمثلا رائعا ،

وتبرز منها روح الارستقراطية العربية جلية متألقة ،

كما تنضح بتمجيد الحكم الفردي الذي هام به العرب .

فأي ذنب جناه النظام ؟! ..

انه الحرص هو الذي دفعه الى التجديد ، فجمع اساطين الادب والفكر ، وكلفهم من العناء اصنافا ، ومن البلاء ضروبا .

ثم زفت البشائر .

واطل على الدنيا وليد جديد ، فتقاطرت وفود المهنئين : ما بين هامس ومخلص .

وتكاملت معالم الافراح بكتب كثيرة يسود صفحاتها عباقرة افذاذ غايتهم فقط خدمة « ابنائهم الطلبة الاعزاء » الذين باتوا العوبة في براثن حظ لا يرحم .

فماذا بعد هذا الجهد الخلاق !! ...

لا شيء الا الشكر والتهنئة يزفهما قوم وردوا مناهل الثقافة عرضا فكانوا عالة عليها وبلاء لها .

اذا ، فليسعد النظام بهؤلاء ، وليثق تماما ألا جديد في برامج الادب الا الاسم ، والا اساليب الاستغلال والتضليل يمد بها من احترفوا ابتزاز التلميذ وتعميته .

وليثق اخيرا اننا لن نكون يوما من المهنئين ، لان أي حديث عن التغيير والتجديد والتطوير في ظل النظام القائم بعلاقاته الانتاجية ، ومضامينه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الخ .. ، يبقى كلاما عابثا لا قيمة له ما لم نسلك الطريق السوي الذي يبدأ من الاساس : اي من تغيير النظام وكسر انماطه الانتاجية الاستغلالية ، تمهيدا لخلق انماط جديدة يمكنها ان تفرز تربية متواكبة معها متلائمة مع اهدافها .

زكي علوان

* * *

ج . ع . م .

من مراسل «الآداب» سامي خشبة

بين الفكر النقدي ومعالجة المتخصصين

اذا كان صحيحا ان وظيفة الفكر الاساسية في عصرنا هي نقد الواقع ، فان الخطوات الاولى للنقد هي التي تملي مهمة القيام باكتشاف الواقع ونسليط الضوء عليه . ولكن نقد الواقع ومهمة اكتشافه لا يعنيان ان يظل الفكر مربوطا بسلسلة الى عربة الواقع الخلفية من قطاره السريع : ليس صحيحا ما يقال من ان النقد لا بد ان يظل تابعا لما يجد من المجال الذي ينفده . انما يدل هذا الفهم على تصور للنقد باعتباره «نقد خدمات» ليس الا وظيفته لا تعدو وظيفة الوحش حبيس القفص في الحديقة : او ياكل ما يقدم اليه حتى يظل حيا وصالحا للفرجة . ان نقد الخدمات سيظل عملا مفيدا ومطلوبا يساعد الناس على «متابعة» الاعمال والاشياء الجديدة ، ولكن النقد الذي تحتاجه الحياة حقا هو نقد الاستطلاع وصياغة مفاتيح الخلق الجديد وارساء قواعده . فالحياة تحتاج الى ما يجددها ويجعلها اكثر قدرة على الاستمرار والتنوع باكثر مما تحتاج الى من يتابعها ويكتشف لها اين اخطأت واين حالفها الصواب ولماذا كان الصواب او الخطأ .

لا نتحدث هنا اذن عن نقد الاعمال الادبية وانما نتحدث عن الفكر النقدي ، الفكر الوحيد القادر على مواجهة اعباء تقدم الحياة واحتمال ثقل الاشياء التي جاء بها التاريخ على طول مسيرته ونفضها وجلاء الوانها ومنح القادر منها على الحياة الوانا وصياغات ودماء جديدة ، وخلق ما يقال فيما بعد ان التاريخ قد خلق في هذه الحقبة او تلك.

لم يعد ممكنا ان تترك مهمة نفض تراب التاريخ عن اشيائنا القديمة لتلقائية التاريخ وحدها ، وبتأكيد اكثر نقول انه لم يعد ممكنا ان نترك لهذه التلقائية مهمة صياغة حياتنا الجديدة والقادمة . والفكر التأملي او السكون فكر محافظ بطبعه . فصاراه ان يطمح الى مهمة نقد الخدمات وذكر الخطأ والصواب (من وجهة نظره) . ولذلك فاننا بحاجة الى الفكر النقدي العلمي الذي يستطيع ان يلطم اشياءنا القديمة لطمات القابلة على ظهر الوليد حتى تجعله يتنفس ، او ربما كان الاصح ان نقول انها لطمات الطبيب على ظهر الغريق وبطنه حتى يجعله يفرغ ما بجوفه من ماء آسن وعفن حتى يفيق . وهو الفكر الذي يستطيع ان يصوغ مفاتيح حياتنا الجديدة ويستطلع آفاقها ويرسي قواعدها وليس قيودها .

ومن مثل تلك المرحلة التي نعيشها ، حيث يلتبس الخطأ الصواب امام الكثيرين من اصحاب النظارات الملونة ، وحيث لا يتعلق الخطأ والصواب بمجرد موقف سياسي تكتيكي او استراتيجي ، وانما يتحول الخطأ في الموقف السياسي الى الانحراف عن مسار الوجود الحضاري والتاريخي لامتنا باسرها ، في مثل تلك المرحلة تصبح وظيفة الفكر النقدي الاساسية هي نقد «الفكر» ذاته ، وعلى وجه الخصوص نقد الفكر الذي يحاول ان يفلسف الواقع او ان ينظر الى الواقع في شموله وكليته ، او ان ينقد هذا الواقع من موقف الاهتمام بالمستقبل الحضاري والتاريخي لتلك الامة كلها .

ولكن ليست مهمة نقد الفكر من قبيل تأمل الذات او اكتشاف حقيقة النفس فقط ـ والذات والحقيقة المقصودتان هنا هما الذات والحقيقة القوميتان ـ وانما يقوم الفكر النقدي ـ كما هو متوقع منه دائما اذ ينقد الفكر بتخليص نفسه من أسر المقولات الجامدة والتصورات السائدة المتجمدة من ناحية ، وبدفع العقلية القومية الى مواقع نظر وعمل جديدة واكثر قدرة على استيعاب ذاتها والعالم من حولها من ناحية ثانية ، وباكتشاف مسار تطورنا كأمة ذات كيان روحي وعقلي متميز وخاص وخصائص هذا التطور ومستقبله من ناحية ثالثة .

●

على اساس هذا التصور لوظيفة الفكر النقدي وأهميته في حياتنا الان ننظر الى المقال القصير الهام الذي كتبه الاستاذ امير اسكندر ونشر في العمود الاخير من مجلة «الفكر المعاصر» القاهرية (أغسطس) آب ١٩٧٠ بعنوان «تناقضات في الفكر المصري المعاصر» .

وترجع اهمية هذا المقال ـ بالاضافة الى صلابة منهجه ومحاولته للوصول الى نظرة شاملة للفكر السائد في مصر الان وهي في نفس الوقت نظرة يسمح لها المنهج الموضوعي الذي اتخذه الكاتب بأن تحتوي تفصيلات واضحة تتكون منها المباحث المختلفة التي يطرحها على نفسه ويرى فيها مكونات موضوعه ـ اقول ان اهمية المقال ترجع بالاضافة الى هذه الصفات الخاصة به الى ما يعكسه موضوع المقال وتوقيته من ارتباط بالموضوعات الاساسية التي لا نفتأ تطرح نفسها على المثقفين الثوريين في مصر منذ اكثر من ربع قرن ، والتي فجرتها ظروف الصراع الوطني الاخيرة بحدة بالغة . فهي القضايا التي لا بد ان يواجهها شعب مستعمر في خضم فترة تحرره الوطني وبعدها مباشرة .

●

لا يطرح المقال قضية انتمائنا القومي بصورة مباشرة ، وانما يطرح احدى القضايا الاساسية التي تترتب على تحررنا القومي والوطني ، هذا التحرر الذي كله يعني ـ الى جانب نتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاخرى ـ ان نستعيد اكتشاف ماهيتنا القومية وأن نعيد صياغة هذه الماهية على اسس علمانية ومستنيرة وانسانية : انه يطرح قضية اعادة اكتشاف عقليتنا القومية والفكر السائد في هذه العقلية ، وهو كمفكر نقدي علمي لا بد ان يكون اكتشافه نقديا وأن يترتب على الاكتشاف موقف نقدي من تلك العقلية وعن الفكر الذي يسودها . ورغم ما يبدو على المقال من انه «مقدمة» لدراسة شاملة ـ وهذا ما نرجوه ـ الفرض منها وضع الخطوط العامة التي لا بد ان تحتويها دراسة نقدية عن الفكر المصري ورسم خطة المنهج الذي ستتبعه هذه الدراسة ، فان المقال يصلح اساسا لمناقشة الكاتب في خطوطه الاساسية وفي منهجه اعتمادا من جانبنا على ان هذه الخطوط هي التي تحدد صورة الفكر كما حددها الكاتب وكما سوف يتوجه اليها بالدراسة ، واعتمادا على ان الهدف الموضوعي من المقدمة هو نفس الهدف الذي تقصد اليه الدراسة في حالة كتابتها .

ولكن فلنبدأ اولا بقراءة المقال معا .

●

في البداية يرسم امير اسكندر الخلفية العامة التي تقبع وراء ظاهرة الفكر المصري المعاصر ، هذه الخلفية التي تكونها مظاهر الازمة الفكرية في العالمين الرأسمالي والاشتراكي .

وتتحدد الازمة في الغرب الرأسمالي ـ كما يكشف عن ظواهرها

جورج لوكاتش بست نقاط :

« ● فقدان الاتجاه والارتداد الى الماضي للبحث عن جـذور الفكر المعاصر .

● انصراف المجتمع عن قضايا الفكر وابتعاد المثقفين اكثر فاكثر عن ميدان النشاط العملي وقصورهم عن كشف حقيقة العلاقـات الانسانية ...

● الشعور المتزايد بالاغتراب وانتشار اليأس والتشاؤم بين المفكرين وضعف ايمانهم بالثورة ووقوفهم عند حدود الحماس النظري.

● عجز المفكرين والفلاسفة عن تقديم تفسير نظري يتميـز بالتماسك والشمول للعلاقات السائدة في مجتمعاتهم .

● الهجوم على المنهج الديالكتيكي والحديث عن عقل انسانـي قاصر من جانب وحقيقة عليا لا يمكن فهمها الا عن طريق الحدس او العيان المباشر من جانب اخر .

● انغماس الفلسفة في خلق اساطير تتعدى التفسيرات العلمية للظواهر ، بل تستغل بعض التفسيرات العلمية استغلالا يخرج بهـا عن حدودها واطارها الحقيقي ... » .

كذلك يواجه الشرق الماركسي والاحزاب الماركسية في الغرب ـ او الفكر الماركسي عمومـا ازمة من نوع اخر ، تتلخص في الظواهر الاتية :

« ● سقوط الستالينية وما تعلق بها من اساطير .

● الانقسام الايديولوجي الذي واجهته وتواجهه وحدة الماركسيين في العالم الاشتراكي وفي الغرب .

● تعدد المدارس الماركسية ... سواء في الدول الاشتراكية او في الاحزاب الماركسية في الغرب» .

ولكن هاتين الازمتين تمثلان ازمة فناء او بقاء للنسق السائد في النظام الرأسمالي ، اما ازمة الماركسيـة فهي نتيجة للانتصارات العملية التي تمثلهـا حضارتهـا كمثل ازمـة من ازمات النمو في ظروف تاريخية جديدة . اما نحن فنعيش مرحلة بناء وتطور وتقدم ومواكبـة ومعاصرة ولحاق بحضارة القرن العشرين ، ولهذا فان تعبير الازمـة قد لا يتفق تماما مع اوضاعنا ، ولذلك فان امير اسكندر يؤثر الحديث عن «تناقضات الفكر المصري الحديث» وليس عن ازمته .

وهو يركز هذه التناقضات اساسا في اربعة مجالات : اولهـا يتصل بجذوره وثانيها يدور حول آفاقه وثالثها يتعلق باتجاهه، ورابعها يرتبط بطبيعة نسيجه .

« ● تتمثل الصياغة الشائعة للتناقض الاول في مشكلة الربط بين الاصالة والمعاصرة ، بين الذات والحداثـة ، بين الماضـي والمستقبل ... »

وهناك اتجاهات ثلاثة في هذا التناقض : اتجاه السلفيين الذين يلحون على ضرورة العودة الى منابع تراثنا القديم العربي والاسلامي والاكتفاء بها . والثاني اتجاه الاخذ من الفكر الغربي البورجوازي او الماركسي ورفض التراث جملة وتفصيلا . والثالث هو اتجاه الربط بين ماضينا وحاضرنا ، بين منابع تراثنا ومصادر تقدمنـا في التطورات الفكرية المعاصرة » .

والخلاف بين هذه الاتجاهات ـ والكاتب يكتفـي هنا بالجانب الجغرافي من الخلاف لضرورة التركيز ـ يقوم بين احجامها . فأكبرها حجما هو الاتجاه السلفي وان لم يكن اكثرها تأثيرا ، وأصغرها حجما وأكثرها نفوذا او تأثيرا هو اتجاه الاخذ والفكر الغربي ، ويتارجـح الاتجاه الثالث في الحجم والنفوذ بين سابقيه .

● والتناقض الثاني في آفاق الفكر المصري المعاصر يحكمـه قطبان : القومية والعالمية . وتوشك فكرة القومية احيانا ان تكـون امتدادا للتراث وحده ، وتوشك فكرة العالمية ان ترتبط بفكرة الاتجاه الى الغرب او الى الشرق .

● والتناقض الذي يتعلق باتجاه الفكـر يحكمه الصراع بين اليمين واليسار . بين مفاهيم السلفية والسكون والثبات ورفض قدرة العقل الانساني على الفهم ... الخ وبين مفاهيم الربط التاريخي بين الاصالة والمعاصرة ، والحركة والتطور والتقدم وامكانيات العقل النسبية ولكن غير المحدودة .. الخ .

● ويتمثل التناقض الاخير في مجال نسيج الفكر العصري المعاصر في الصراع بين الايمان بالتكنولوجيا وسيلة للتطور المادي وبين الايمان بالعقائدية وسيلة لخلق الانسان الحر الصحيح . وحل هذا التناقض الاخير على اساس الجمع بين الثورة العقائدية والتقدم الصناعـي والتكنولوجي ، هو الفض النهائي لكل تلك المتناقضات : «فالثـورة الاشتراكية هي ثورة الاصالة والمعاصرة ، وهي ثورة القومية القائمـة على اسس العالمية ، وهي ثورة اليسار المتقدم على انقاض اليميـن المنهار ، وهي ثورة الانسان المصري الجديد الذي صنع اول الحضارات في التاريخ القديم والذي يناضل الان لا ليرتفع الى مستوى ماضيه فحسب بل لكي يتجاوزه ايضا » .

●

هذه هي الخطوط الاساسية في هذا المقال الهام ، على قصره ، نقلناها بكلمات كاتبه تقريبا . وفي حدود ما تحكمه هذه الرسالـة نستطيع ان نشير الى ما يثيره هذا المقال من تساؤلات ايجابية وسلبية وما يطرحه معه من خلافات .

ونكاد خلافاتنا مع امير اسكندر ان تنحصر في حدود النقطتين ـ او المجالين الاولين من مجالات التناقض التي حددها : المجال الذي يتصل بجذور الفكر المصري ، ثم ذلك الذي يدور حول آفاقه . ولكننا نرى ان تحديده لتناقضات المجال الاول وآفاق المجال الثاني انما يرتبطان بزاوية نظره الى ماهية الفكر نفسه او بالمنهج الذي ابعه لتحديـد آفاق « موضوعـه ذاتها » .

● فحينما يتحدث امير اسكندر عن جذور الفكر المصري ، يلوح لنا انه يتحدث عن فكر مطلق غير مربوط بجذور واقع معين لـه تاريخه وظروفه الواقعية التي تملي ارتباطاته وهمومه قبـل ان تملـي تناقضاته ذاتها . وهكذا ينصب التجريد هنا ـ من جانب امير ـ على الفكر المصري ذاته وليس على جذوره .

ان جذور الفكر الحقيقية لا تكمن اساسا في المصادر الثقافيـة التي يستقي منها الفكر تصوراته ومصطلحاته ومناهجه ومباحثه ، انما تكمن اساسا في «الواقع الحضاري» الذي افرزه بجوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والفكرية جميعا . ومن هنا فـان الحديث عن اتجاه «سلفي» في الفكر المصري بمعزل عن الواقع الذي كرس السلفية وجعلها الاتجاه الرئيسي في الفكر المصري (وليست مجرد القطب الاول من اقطاب جذوره) سيجرنا الى التناقض الذي وقع فيه الكاتب فعلا اي الى النظر الى «تأثير» تيار فكري معين كالسلفيـة على اساس قدرته على توجيه مؤسسات الدولة وقيادة مستقبل التطور. ان توجيه مؤسسات الدولة تبدو هنا مرادفة لقيادة مستقبل التطور، رغم ان «التطور» مطلوب اساسا في مؤسسات الدولة ذاتها . ثم هل صحيح ان الاتجاه السلفي في الفكر المصري ـ رغم ضخامة حجمه ـ يقل في نفوذه عن تيار الاخذ من الغرب ؟. وما مجال الاخذ من الغرب في الحقيقة ، وما هو نوع ما يؤخذ فعلا وما تأثيره : الا يمكن ان يكـون تأثيره هو تدعيم الاتجاه السلفي نفسه ؟ ان الاخذ ـ مثلا ـ بأسلـوب الادارة الرأسمالي نحت زعم ان علم الادارة لا علاقة له بالنظـام الاجتماعي ـ وهو زعم له تيار قوي ينادي به ـ هذا الاخذ : اين موقف السلفيين منه وما تأثيره عليهم ، وما هي العلاقة الحقيقية بين اتجاه السلفيين واتجاه الآخذين من الغرب (بمختلف فروعهم) وما المنبـع الاجتماعي لكل منهما والدلالة التي يلقيها هذا المنبع على علاقـات القوى الاجتماعية ؟

نهدف من هذه الاسئلة الى توضيح نقطة تناقض معينة : اننا لا نستطيع ان نحدد ماهية الفكر بمعزل عن الواقع (الاجتماعي والسياسي والاقتصادي) ولكننا لا نستطيع ان نناقش هذا الفكر ونناقش الواقع

معه في وقت واحد : ونعتقد ان امير قد وقع في الخطأين : لقد عزل ماهية الفكر في تصوره اولا ، ثم راح يمزج بين التيار الفكري ونفوذه في مؤسسات الدولة بين قيادة مستقبل التطور في النهاية .

وربما كان السبب في هذين الخطأين هو الرغبة في معالجة الموضوع من زاوية «التخصص» الفلسفي تجنبا للخوض في مشكلات مبتذلة او عادية ابتذلتها الكتابات السياسية العديدة والمتسرعة ، ولكننا لا نعتقد انه من الضروري للمعالجة المتخصصة فلسفيا ان تبتعد عن الاسس التي قام عليها منهجها الفكري في البداية . وهذا الارتباط «بالاسس» لا ينفي ضرورة التفكير النقدي المتخصص وعلى المستوى الشامل للظاهرة : ولكننا نشير الى ضرورة ان يكون التفكير الشامل غير التفكير المجرد اي ان يكون حريصا على الربط بين الفكر والواقع من جانب وعلى دراسة الفكر «وحده» وليس «في عزلة» عن الواقع من جانب اخر .

● اما الخلاف الثاني ـ وهو الاكثر اهمية من وجهة نظرنا ـ فيتعلق بالتناقض الذي يدور حول آفاق الفكر المصري المعاصر ، الذي يراه امير محكوما بقطبين اساسيين هما فكرة القومية وفكرة العالمية .

نتساءل اولا ـ سؤالنا الثاني ـ اين وجد فكر العالمية هذه ؟ في أدمغة عدد من الاكاديميين في الجامعة او اصحاب «المواهب العالية» من المثقفين ، ام عند غالبية المتعلمين ؟

ونحن نخرج من هذا السؤال التساؤل عن موقف غالبية الشعب الامية من فكرة العالمية لان فكرتهم عن العالم نفسه وعن ارتباطهم به فكرة خرافية اصلا وان تناثرت في اذهانهم بعض المعلومات الصحيحة التي تستخدم لتدعيم الفكرة الخرافية وليس لاستبدالها بفكرة علمية او موضوعية) .

نرجح ان الفريق الاول ـ فريق الجامعيين والحواجب العالية ـ هو الذي يمكن ان يؤمن بفكرة العالمية ، وهو فريق ضئيل يكاد يعد على اصابع اليدين او اكثر قليلا . وهذا الحجم الضئيل لفكرة العالمية يخرجها على الفور من مجال «الصراع» او من مجال القدرة على ان تكون قطبا اساسيا من اقطاب التناقضات الواقعية في الفكر المصري المعاصر.

ومن ناحية اخرى نضع بديلا لهذه الفكرة: ان غالبية الشعب تؤمن بالوحدة الدينية وان اتخذ ايمانها شكلا غامضا مبنيا على همهمات خطباء المساجد على الاغلب ، وتتخلل هذا الايمان فكرة غائمة عن الوطنية المرتبطة بمصر اساسا (وليس بالوطن العربي) . هنا يبدو هذا القطب من اقطاب الصراع الفكري الى جانب وافعته وقيامه راسخا في اذهان ملايين المصريين على غموضه وابهامه ، يبدو محتويا على تناقضه الخاص بين شمولية الوحدة الدينية واقليمية النزعة الوطنية ذات المضمون البسيط والمرتبطة بمصر .

اما قطب الفكرة القومية فله تناقضاته الداخلية الخاصة ايضا، رغم ان فكرة «القومية» لا تسود في الاغلب الا عند المتعلمين لارتباطها بقدر ضروري من الوعي السياسي اولا ، ثم بقدر من الوعي بالمصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتحقق في ظل كيان قومي مستقل . ونعتقد ان التناقض الداخلي في هذا القطب متعدد الاطراف: هناك فكرة القومية المصرية التي لا نزال نراها عند مفكرين كبار من نوع لويس عوض مثلا وان لم يصرح بها في كتاباته كايمان صريح له (انظر مثلا فصل نشأة الفكرة القومية في كتابه تاريخ الفكر المصري الحديث حيث تعامل مع هذه الفكرة تعامله مع شيء موضوعي ونهائي حسم موقفه منه وان كان يعالجها في اطار تاريخيتها) ، وهناك فكرة وادي النيل التي كانت حلما راود جيلين كاملين من السياسيين والمثقفين والمتعلمين المصريين . وهناك فكرة القومية العربية ذات التاريخ القريب جدا في مصر والتي نواجه ـ كفكرة تحتاج الى ايمان الناس كي تكتسب وجودا ماديا وقوة مادية مؤثرة ـ الكثير من الصعاب تفرضها وتدعمها مصالح بقايا البورجوازية والبيروقراطية المصرية وفكرها السلفي والغربي على حد سواء .

ومرة ثانية ان السبب الذي دفع الكاتب الى تضخيم حجم قطب العالمية ، والى تجاهل فكرة الوحدة الدينية والوطنية المصرية وتجاهل تحديد ما يعنيه بفكرة القومية ، هو المناقشة المتخصصة من جانب (او الرغبة في معالجة الموضوع على مستوى التخصص الفلسفي) ومن جانب اخر الرغبة في الوصول بالمعالجة الى مستوى الشمول الذي وقع في التجريد لعدم قيامه على اساس من تحليل للواقع السائد بين جماهير الشعب بعيدا عن المتخصصين .

القاهرة — سامي خشبة

***

ج.ع.س

من مراسل « الآداب » محيي الدين صبحي

شيء عن الأدب في سوريا

قال حجل بن نفلة :

جاء شقيق عارضا رمحه

ان بني عمك فيهم رماح

لا ينطبق هذا البيت على شيء قدر انطباقه على الحياة الادبية في دمشق ، خلال الشهور الستة الاخيرة ، حيث حمي وطيس الجدل وعلا غبار المساجلات ، وارتفعت العقائد من كل صوب يحاول اصحابها ان يثبتوا تقدمهم في الفن واستقلالهم في الحياة .

مهما كان رأيك فيها : معارك ادبية او زوبعة في فنجان او حتى مناوشات ، فانها آراء وآراء مضادة او ردود أثارت عددا من القراء وملأت الجو الادبي تحزبا وتعصبا وتحيزا ، بحيث لو وجد محرر ادبي نشيط وقام باستفتاء لبروز آراء الادباء وسبر الجوانب التي يقفون فيها لجاء هذا الاستفتاء بمثابة صب الزيت على النار واثارة الفساد بين العباد . فالجو الادبي عامة لم يخرج عن حيز الجمعيات العفوية التي يلتفي افرادها ضمن تجمع اكبر، كالجامعة او الحزب او عاصمة احدى المحافظات ، فهي مجموعة صداقات شخصية نشأت لسبب من الاسباب ...

والمناقشات التي جرت لا تعدو في مجموعها ان تكون صدى لما كان يدور في تلك الحلقات « الطلابية » وان كانت تسجل في الوقت ذاته انفراط تلك العقود وانتهاء عهد التجمعات : انها صرخة الديك الذي ففس البيضة وانطلق في انحاء الحقل ، او ـ بلغة العرب العاربة ـ انها صيحة الطفل الذي شب عن الطوق ، بكل ما تحمله تلك الصيحة من نزق وحب للتأكيد على الذات ، دون ان ننكر طبعا على هؤلاء الصائحين آراءهم التي تلكأوا كثيرا قبل ان أعلنوها .. فهي آراء ـ صيحات او صيحات ـ آراء ، لا فرق . المهم انها قيلت وأثارت حولها لغطا كثيرا بين الادباء .

بين الومض والرعد

واكثر ما تبدو هذه الرواسب وضوحا ، في رد حيدر حيدر « العنيف » على تعليق نشره علي الجندي في مجلة « جيش الشعب » (العدد ٩٣٩) حول مجموعة حيدر الاخيرة « الومض » .

ونفصيل الامر ان اتحاد الكتاب العرب في سورية نشر مجموعتي قصص قصيرة لكل من : زكريا تامر « الرعد » وحيدر حيدر «الومض» وثلاثة دواوين من الشعر ، احدهما لمحمد الماغوط « الفرح ليس مهنتي» والآخر لعلي كنعان « انهار من زبد » ولممدوح عدوان « تلويحة الايدي المتعبة » .

فقال الشاعر علي الجندي في تعليقه على مجموعة حيدر حيدر :

« حيدر حيدر شيء آخر في القصة ، فهو في الغالبية من قصصه ما يزال يشعرك بانه في طريقه لخلق « قصته الخاصة » وبان عليك ان تقدر طابع المحاولة الظاهرة على قصصه ، للجهد المخلص المرهق الذي يبذله في سبيل ذلك !

التعامل مع كتابته ليس سهلا ، والكتابة عنه « عسيرة » ومحفوفة

بالمكاره على غير ما يحس الكاتب عن زكريا تامر . فهذا بالرغم من تعدد جوانبه وتطوره الدائم ،يبدو اكثر وثوقا من نفسه ، ويتصرف في عملية خلقه باسلوب « حلم » راسخ القدم ..

حيدر ، من العبارة الاولى في أية قصة عنده ، يشد انتباهك الى انه يحاول ان يأتي بجديد ـ هذا الجهد المشكور ابدا .

وما ان تسير مع احداث القصة قليلا ، او (المونولوج) المسرود بطريقة غير آلية ولا عفوية ـ كما يجب ان يكون ـ حتى تحس مشكلتين تتناوبان اكثر قصصه ، حتى لتطغيا على الهدف الرئيسي منها كما يبدو لك كقارىء لاول وهلة .

غير انه مقسم بالتساوي احيانا في قصصه ، بين التفريج عن همومه الشخصية وعرضها ، اذ يبدو متسللة خلال الاحداث والمنولوجات الداخلية ـ هذا بالنسبة لمن يعرفه شخصيا بخاصة .. حتى ليفجع بها كل شخصياته غالبا ـ وبين اللغة الخاصة التي يريد ان يبتدعها لنفسه بشق النفس فيوفق حينا ، ويضيع أحيانا ما بين لغة التوراة ـ نشيد الانشاد بخاصة ـ ولغة الشعر المترجم او الشعر الماغوطي واحيانا الادونيسي .

... وهو في مجموعة قصصه الجديدة (الومض) .. لم يتطور كثيرا عن مجموعته السابقة « حكايا النورس المهاجر » الا في بعض قصصها التي وثب فيها رمحا عن مستواه السابق ، مثل قصته «الطلق» وهو هنا ايضا « يجرب » اكثر من اسلوب تتراوح ما بين اسلوب زكريا تامر واسلوب سليمان فياض واسلوبه الشخصي الذي تبدو له ملامح لم تتوضح بعد في المجموعة كلها ...

... وللعزيز حيدر احيانا تقطيبة الفرسان .. على كل حال ! » وبالطبع يتضمن المقال ـ عدا عن هذه الملامح العامة عرضا وجيزا بعدد من القصص مع مناقشته لها مختصرة .

هذه اللهجة الودود ، والرسم الواضح لـ « خصائص » القصة والاسلوب عند حيدر هي ـ في رأيي ـ ملائمة للحديث عن كاتب لم يتجاوز الخامسة من عمره الادبي ، ولم يثبت انه من اصحاب الشطحات التي تجاوز المألوف من فصاص عادي يحاول ان يبني نفسه شيئا فشيئا . في النواحي الفكرية والتقنية والاسلوبية ، على السواء . فكيف كان الرد ؟

كتب حيدر حيدر في مجلة جيش الشعب (العدد ٩٤٢) مقالا يعدل في الحجم ضعف مقال علي الجندي ،وكان بعنوان « العقدة التامرية عند علي الجندي » .

المقال ، كما قلت ، طويل ، وهو اشبه برسالة نشر غسيل بين اصدقاء قدامى ، وسنقتطف من الملاحظات الشخصية اقوالا متفرقة :

... معطيا لنفسه (عن علي الجندي) منتهى الثقة والاباحية في تسجيل بعض الانطباعات الشخصية من خلال علاقتنا صحابا سابقين ..

الذي يعرف علي الجندي يعرف انه اذا جوبه وخولفت آراؤه ، يهتاج ويصرخ مصابا بنوع من العمى قد يصل الى حد الايذاء الجسدي.

.. بهذا المنطق العصابي يتصرف « ابونا » علي ، وهو يوزع ثناءاته او عقوباته علينا نحن ابناءه الصغار .

.. أما أنا الفقير فكل ما قلته في ليلة سمر اتسمت بالصراحة: ان ممدوح عدوان أشعر من علي الجندي في بعض قصائده . كما حاولت الاستفادة من تجربة علي في الحياة لاقدم نموذجا في رواية اكتبها . وهذا النموذج يمثل جانبا من جوانب اسباب انهيار العنصر العربي ..

.. وقوالبه الجاهزة تراكمت من ازمنة قديمة يوم كان يقرأ وقبل ان يتحول الى مسامر وحكواتي نهارات وليال من الدرجة الممتازة ..

وهكذا ، وبعد « تشريح » شخصية علي الجندي كما تصورها حيدر حيدر ، ينتقل الى الضرب على الرأس ، فيعدد لاخطاء احكام علي الجندي ثمانية اسباب يهمنا منها قوله :

٣ ـ عقدته (الكلام عن علي الجندي) الخاصة به وهي : العقدة التامرية .

٦ ـ .. حديثه عني كمبتدىء او مجرب وباسلوب الاب الوصي).

اما السبب السادس ، فيلفت نظرنا فيه ما قدمناه في مطلع هذه الرسالة من ان هؤلاء الادباء شقوا عصا الطاعة وخرجوا على طوق الحلقات الضيقة ،وأرادوا أن يؤكدوا ذواتهم واستقلالهم عن بعضهم بعضا وحتى عن الذين اثروا بهم في الادب والحياة ـ وان كان هذا الميل قد اتخذ طابعا عصابيا متطرفا الى حد قلب المحاسن الى مساوىء : فكل ما فعله علي الجندي خلال السنوات السبع السابقة، انه قدم الى الجو الادبي والصحافي هذه الاسماء الجديدة كلها ، وتعصب لها ودافع عنها وعن نواياها الادبية حتى من قبل ان يخضر عودها او يعقد زهرها . فلما اعتقد انها استوت وحان قطافها عاملها بشيء من الموضوعية التي تمليها روح الصدق في((الزمالة)) فظن هؤلاء انه تنكر لهم وقلب لهم ظهر المجن .

على ان ما يعنينا ـ بعد تدعيم تحليلنا بسرد وقائع من التاريخ القريب للحياة الادبية ـ هو ان حيدر حيدر في مقاله لم يكتف برفض علي الجندي صديقا وشاعرا ومعلقا على كتبه ، بل ارتد على زكريا تامر بسبع ملاحظات نلخصها فيما يلي :

١ ـ « انه يفتقر الى ما يمكن تسميته بالوعي التاريخي النفسي للانسان والمجتمع العربي ..

٢ ـ التزم « طريقة واحدة مكررة في العرض ».. « مما يدل على نوع من القناعة السكونية الكابحة للتطور .

٣ ـ في قصصه أبهام وغموض وتشوش تترك القارىء احيانا امام باب مطلسم .

٤ ـ ينقل قصصه بمشاعر ذهنية تفيض عن الحد .

٥ ـ السلطة (في قصص زكريا) في جميع الازمنة وجميع الانظمة متوحشة وقذرة .

٦ ـ تتسم قصصه بنوع من العدمية والفوضى ،.. فمعظم ابطاله متسكعون كسالى .

٧ ـ معظم شخصيات قصصه تسقط في فراغ تجريدي لا يسمح لها بالنمو والحركة .

قبل أن أتم المقال يأبى علي ضميري الادبي ، كناقد محترف ، الا أن أثبت في هذا المقام انني ارى ان مميزات قصص زكريا تامر هي عكس ما أورده حيدر حيدر على طول الخط ، وانني التزم بأن ادعم رأيي بدراسة مطولة عن مجمل انتاجه . ولا اكتم سرا اذا قلت انني أقبل على هذه الدراسة متهيبا ، لا لرسوخ القيمة الفنية في انتاجه فقط ، وانما لبعد تأثيره على القصة في سوريا خاصة والقصة العربية عامة . وانا في موقفي هذا اختلف ايضا مع حيدر حيدر في قوله :

« ان احدا ما لا يعتقد بعد هذه الملاحظات الجوهرية انني من المعجبين لدرجة الدهشة بقصص زكريا تامر ، الدهشة التي تقودني صاغرا الى التأثر به او تقليده » .

فأما ان هذه الملاحظات العابرة « جوهرية » فأمر مشكوك فيه، واما ان حيدر حيدر غير معجب فهذا امر يعود له ، فاذا بقيت قضية التأثر فليسمح لنا حيدر بها لان التأثر ليس مشروطا بالاعجاب ولا بالدهشة ، فالاثر الفني المتقن يفرض نفسه سواء أأعجبت به ام لم تعجب ، وحتى ان فهمته او لم تفهمه ـ ولا ادل على ذلك من أن في العربية الف « بنجي » دون ان يوجد الف كاتب فهم « الصخب والعنف » فهما صحيحا . ومن العجب العجب أن ما يأخذه حيدر على علي (.. ولان علي الجندي لا يكلف نفسه عناء الاستغراق والدخول في جو القصص ، ولا يرغب في استيعابها ومداليل ما تفصح عنه ، فهو يتعامل معها بطريقته النزقة محاولا ايجاز بعض القصص التي تصفحها على نحو مبتور . بحيث يمزق اشلاءها باحكام محض شخصية) ينطبق على حيدر نفسه . فهذه المعطيات السبعة لا تركز على دراسة تحليلية للقصص ذاتها ، بل هي انطباعات كان حيدر حيدر قد نشر عكسها تماما عن قصص زكريا ذاتها ،في جريدة البعث ، قبل خمس سنوات!! هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان تقسيم الانطباعات الى سبعة

عناصر لا يكفي ليمنحها المظهر العلمي الذي يرغب حيدر في ان يحليها به ، ولا يمنعها من ان تتناقض او تخلو من المعنى : فمثلا ، لو صدقنا ان لدى زكريا طريقة واحدة في العرض فان هذا لا يعد نقيصة ، اذ ان كافكا وهمنغواي وشيخوف كذلك ، والا فأين تثبت الشخصية الادبية ملامحها ؟ كما أن الذاتية ليست عيبا اذا كانت ذاتية تتعلق بابطال القصة انفسهم وليس بكاتبها . اما كون الابطال متسكعين او كسالى فهذا يعود عند التقييم الى السبب الذي اصبحوا على ما هم عليه ، اليس كذلك ؟

وأهم من هذا كله : ما هو مفهوم القصة عند حيدر حيدر ؟ ما هو مفهوم التكنيك ؟ وما هو مفهوم اللغة ؟ هذا ما لم يحاول ولم يستطع حيدر ان يحدده او يأتي فيه بقديم ولا جديد في مقال يزيد على ثلاثة الاف كلمة : وما دامت هذه القيم غائبة فان قيمة هذا المقال ذاتية محضة ، ويكون حيدر حيدر قد عجز عن ان يأتي بجديد في القصة او النقد ، بل حتى عن ان يوضح اين يقف من التراث الذي وجده جاهزا من قبل والذي صنعه آخرون يأبى ان يعترف بهم أو بأثرهم عليه .

* * *

... وخطاب من لا يفهم

واذا كنا نمج هجوما شخصيا بهذا المقدار ، بين صديقين سابقين ، اريد لطرف ثالث ان يكون ضحيته . دون ان نكسب المزيد من الوضوح في القيم ، بله الزيادة فيها والاضافة عليها ، فاننا مع ممدوح عدوان امام محاولة مختلفة قليلا ، لانها وان كانت تخلو من العنعنات الشخصية ، والمعلومات الخاصة ، فانها في النهاية تسعى للايقاع بالشخص ، بغية اسقاط شعره ـ الطريقة ذاتها التي اتبعها حيدر حيدر ضد علي الجندي .

فقد كتب ممدوح عدوان في العدد (٢٠٠) من مجلة الطليعة الاسبوعية ، مقالا بعنوان « سليمان العيس : ورطة التردد بين جيلين » ، وذلك في معرض نقد « ممدوح » لديوان سليمان الجديد « كلمات مقاتلة ».

يبدأ ممدوح مقالته بهذه المقولة المحرجة « لسليمان العيس اهمية خاصة تجعل الكتابة عنه محرجة » وهذه الاهمية في نظر « عدوان » ترجع الى ان سليمان « ورقة رابحة » بين انصار الشعر التقليدي الذين يرون فيه حجة على صلاحية هذا النوع للحياة ، وبين انصار الشعر الحديث الذين وجدوا ان (سليمان العيس ذا الباع الطويل في ميدان الشعر التقليدي قد وجد نفسه مضطرا ـ وهذه كلمة هامة ـ الى اللجوء للشعر الحديث لكي يعبر بالضبط عما يريده) .

بعد تجريح الوضع التاريخي للرجل ـ وهو وضع ليس سليمان بمسؤول عنه ـ ينتقل « عدوان » الى تجريح السيرة السياسية للرجل .

(فسليمان العيس ـ وهنا ننتقل الى الجانب الثاني من اهميته ـ رجل مرحلة تاريخية طويلة ، عمره يقرب من الخمسين . مهاجر من اللواء . مناضل سياسي منذ اكثر من ثلاثين عاما . شارك في تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي وهو طالب ثانوي عام ١٩٤٠ ..

مارس مهنة التدريس منذ عام ١٩٤٧ : وهذا يعني ان عددا لا بأس به من مثقفي القطر قد التقى بهم سليمان العيس طلابا أو حزبيين، وهو كذلك ينشر المجموعات الشعرية منذ عام ١٩٦٢ .. ومجموعها ١٣ ديوانا واربع مسرحيات شعرية .

هذا بالاضافة الى جانب هام من حياته : فهو لم يمارس العمل السياسي كمثقف فقط بل كشاعر . واسمه مرتبط بتاريخ نضال الحزب كشاعر المهرجانات ايام النضال الايجابي .. كما وان الشباب كانوا يتداولون شعره المعبر عن مواقفهم السياسية في مراحل النضال السلبي، مثلما يتداولون المنشورات السرية . وسليمان العيس يعي هذه الحقيقة تماما ..

... ويتحول الامر لدى الرأي العام الى نوع من الارهاب ..)

لكن « عدوان » نسي ان يقول ان الشاعر سليمان العيس نفسه ليس مسؤولا عن هذا الارهاب ، وانه يلقى بوجه بشوش كل من يتناول شعره بالنقد ، سلبا او ايجابا ، بعكس « ادباء » آخرين يستعدون الناس والسلطة اذا ما جوبهوا ... وهنا ايضا لا بد ان اتدخل قليلا لاعدل الصورة التي رسمها « عدوان » لسليمان . فمنذ اكثر من عشر سنوات علقت على بعض آثار الاستاذ سليمان في مجلة « الآداب » هذه ذاتها ، ولم اكن اعرفه معرفة شخصية ، كما انه كان لايزال يقطن في حلب ولما ينتقل الى دمشق بعد . فحمل الي البريد رسالة منه ، لا ارق ولا ألطف . وكان من مصادر اعتزازي أنه ناقشني الاحكام مناقشة هادئة تفصيلية معقولة ، ثم شاهدته في مقهى (الهافانا)في دمشق جالسا مع المرحوم زكي الارسوزي ،فقدمت نفسي اليه، واتصلت بيننا مودة وصدافة لا زالت تنمو الى اليوم ، يزيدها انفاق آرائنا حول معظم قضايا الشعر المعاصر . ولم المس منه في يوم من الايام اعتدادا بوضعه التاريخي او السياسي ، يجعلني احس بأن الكتابة عنه محرجة امامه من جهة من الجهات . بل على العكس ، يخيل لي ، لو أن دارسا لازمه وطلب اليه ان يعاونه لاستفاد منه فوائد جلى .

ومهما يكن من امر ، فان النواحي النقدية التي اثارها ممدوح واستشهد لها بشعر من الديوان ، وهي نواح صحيحة بشكل عام ، ومن الواجب اعادة معالجتها بالمزيد من التفصيل . فالموضوعة التي ينطلق منها ممدوح هي :

« والمشكلة ان سليمان العيس ،حين يكتب الشعر الحديث ويدخل هذا الميدان ، يصبح معرضا لابداء الرأي في شعره اكثر مما لو لم يفعل .خاصة وانه يقتحم هذا الميدان وشعره الحديث يخلو من الحداثة ، وليس فيه من الشعر الحديث الا الشكل . وهذا خطأ لا بد من اصلاحه ، في اذهان القراء على الاقل ، وهو ان الشعر الحديث ليس مجرد شعر يحطم العمود القديم .. اي ان قضية الحداثة ليست شكلية » .

ثم يورد اربع خصائص في الشعر الحديث من قصائد الديوان، هي :

١ ـ الشكلية ٢ ـ المباشرة . ٣ ـ الحشو والمبالغة . ٤ ـ المناسبات . على ان ممدوح عدوان ، وقد رفض ان تكون الحداثة قضية شكلية في الشعر ، تقتصر على القوافي ، لم يكتب كلمة واحدة يفيدنا بها عن ماهية الحداثة في الشعر ، حتى ولا عن ماهية « القدم » فيه ، على الرغم من انه احس بالحاجة الى ذلك ،« فقال :« ولئلا يطول الشرح لن نتعرض لاعادة شرح معنى الكلاسيكية وجوانبها » وكذلك ، وربما للعذر ذاته ، لم يتعرض لتحليل مفهوم الحداثة . هذا التجاوز أفقد المقال النقدي الجوهر الذي نبحث عنه : ما هو مفهوم الشعر عند ممدوح عدوان ؟ هذا مهم جدا خاصة بالنسبة لشاعر شاب يصول ويجول في ميادين الشعر والمسرح والرواية .. الخ وبذلك خرج مخرجا غير كريم من ورطة تحديد المفهومات الفنية ، على الرغم من انه رأى سليمان في « ورطة التردد بين جيلين » ثم اوقع نفسه في «ورطة» الحديث عن شاعر له ارث متعدد النواحي .

مرة اخرى نعود الى رفض القادمين الجدد « لابوية » اسلافهم . مع العجز عن تحديد ما يريد هؤلاء القادمون . انهم يعرفون ما لا يريدون ولا يعرفون ما يريدون .

مرة اخرى ، يبدو ان سليمان العيس ذاالصدر الرحب تضايق من ملاحظة وردت في مقال ممدوح مرتين . الاولى حين قال :« ولذلك فسليمان العيس يكتب الشعر الحديث بجرأة . وبالجرأة ذاتها(وهذه ربما كان اصلها خوفا) يحتضن مجموعة (صفر) لابي الفتح» ..

فكتب سليمان العيس الى ممدوح رسالة ينفي فيها عن نفسه تهمة لانها تهمة شخصية ، غير ادبية ، ومنافية للواقع . وقد عمد ممدوح ـ بحق او بغير حق ـ الى نشر الرسالة الشخصية في العدد (٢٠٦) من مجلة الطليعة ، ولا ادري من تفضل ـ ممدوح او غيره ـ فوضع لها عنوانا اترك للقراء مهمة الحكم عليه ، وهو « لست شاعرا » .

واذا كان ممدوح عدوان قد نزع عن شعر سليمان العيس صفة الحداثة ، ولمح الى ان شخصه يحمي شعره من النقد ، فان تعليق (المحرر الادبي) لمجلة الطليعة قد جاء ضغثا على ابالة . قال المحرر الادبي تعقيبا على الرسالة .

« هو شاعر ما دام يصدر الديوان تلو الديوان ..

ولئن شاء ان يقاتل بالشعر ، فذلك شأنه ، ولكن لنا ايضا ان نمتحن صلاحية الاداة التي يقاتل بها ..

فالشعر يقاتل حين يكون شعرا حقا ومجاله هو اللغة ، اعني الحضارة ما دامت تقوم على اساس اللغة ..»

وكان سليمان في رسالته قد قال عن الكلمة الشاعرة « انها سلاح لا اكثر .. سلاح في يدي ، ربما كان مفيدا ومجديا الى حد بعيد » .

فجاء المحرر الادبي للطليعة يماحك ويتمحل وينتحل صفة من (يمتحن صلاحية الاداة) . انه يريد (الشعر الحق) . فهل تفضل هو الاخر وابتعد عن الكليشهات الجاهزة ليشرح لنا هو هذا (الشعر الحق) ؟ ثم من قال ان الحضارة تقوم على اساس اللغة ؟ ان اللغة هي احدى اسس الحضارة ، واما الاساسان الاخران الاكثر اهمية فهما النظام الاجتماعي والانتاج بشقيه الزراعي والصناعي .

واذا كان سليمان ليس شاعرا في رأي ممدوح ، فهو ليس مناضلا في رأي محرر الطليعة ـ وبذلك يخرج هذا الرجل الجليل صفر اليدين ، عاريا كما ولدته امه : يا صنيعة العمر !!

على ان رسالة سليمان وثيقة ادبية تستحق ان يعاد نشرها ، وسنقتطف اهم ما ورد فيها :

« .. الذي أريد ان اقوله للناس ، للاخوة ، للريح ، لكل من أعرف ومن لا أعرف .. انني لست شاعرا .. ولا طمحت يوما ان اكون شاعرا ، تلك هي الحقيقة التي تكشف اعماق أعماقي .. بالرغم من الدواوين العديدة العديدة التي صدرت لي والتي ستصدر ابدا . أنا انسان عربي .. رأى نفسه يقتلع من داره ، من تحت شجرة التوت في قريته ، يحرم لغته وتراثه وارضه وقريته فجأة ، ويلقي به في الغربة .. مشردا منذ اكثر من ثلاثين عاما . كنا قافلة الغربة الاولى في ارضنا .. ثم تلتها قوافل لا عدد لها .. وما تزال الشفرة على العنق .. وما تزال الملايين المائة التي أنتمي اليها .. وأعد نفسي خلية في جسدها ، تناهب للمحنة السوداء كل مطلع شمس .

ونظرت حولي .. وأنا طفل صغير .. كيف ادافع عن نفسي ،وماذا استطيع ان افعل ويفعل امثالي ؟ ووجدت الطريق ، او خيل الي انني وجدتها .. الطريق حلم ضخم .. سأحمله أنا ورفاقي .. سنقاتل في سبيله حتى النفس الاخير ... الحلم الضخم الذي عشت من اجله وما زلت أعيش ، هو أن تكون لي دولة عربية كبرى قادرة على ان تحمي اطفالي .. فلا يقتلهم من يشاء ، ساعة يشاء ، من بيوتهم، من ظل شجرة التوت التي يلعبون تحتها ، ويكتبون اولى قصائدهم تحتها ، ويلقى بهم الى اي مصير أسود يتلقفهم في الطريق .

لا أنا . ولا دولة صغيرة كسورية العربية الطليعة ، قادرة على ان تحمي اطفالي ـ أعني اطفال العرب ـ من هذا المصير ... القادرة وحدها على ذلك هي الامنية الضخمة التي انتفس بها منذ اربعين عاما .. هي الدولة العربية الكبرى . تلك هي قصيدتي التي احلم بها .. وانها لملحمة هائلة ، ما أنا ـ بالغا ما بلغت ـ الا قطرة ماء في محيطها .

وآنست ذات يوم في نفسي اني أكتب الشعر .. ووجدت الكلمة الشاعرة صدى في نفوس الملايين .. فلم لا أقاتل بها ؟ انها سلاح لا اكثر .. سلاح في يدي ربما كان مفيدا ومجديا الى حد بعيد .وهكذا بدأت أكتب الشعر ، أو قل : اقاتل بالشعر . وما زلت . وساظل اردد ابدا : انني لست شاعرا .. انا حامل امنية ضخمة .. وخيال شجرة توت اقتلعت من تحتها .. وانا في العاشرة .. او دون العاشرة ...»

اذا لم يكن هذا هو الموقف الشعري عينه ، فليس في الدنيا شعر. فاذا اخذنا الفن على انه « اعادة خلق العالم » او انه « خلق النظام من السديم » ، فان قصيدة « الدولة العربية الكبرى » التي يحلم بها سليمان ، انما تعني بكل بساطة اعادة خلق العالم وتغيير مركز الحضارة وخط سير التاريخ ومفهوم البشرية باجمعه .

هذا ليس شعرا ، لا في رأي المحرر الادبي ولا في رأي ممدوح عدوان .

فلنتابع قراءة « بيان » سليمان العيس . فهو بعد ان حدد موقفه الشعري من الحياة والتاريخ ، قد حدد مضمون شعره ايضا وهو المحافظة على مستقبل الامة بحماية اطفالها « فلا يقتلعهم من بشاء . ساعة يشاء ، من بيوتهم ، من ظل شجرة التوت التي يلعبون تحتها ، ويكتبون اولى قصائدهم تحتها » . هذا المضمون ، على الرغم من ان التزامه واجب فردي ووطني وقومي ـ فانه في الوقت عينه مضمون انساني يشمل كفالة حق الحياة والتقدم لابناء الامة العربية واطفال الارض قاطبة . لكن رغبة تأكيد الذات عند ممدوح عدوان جعلته يهمل المضمون وينصرف الى الشكل ، وذلك كنزعة اي فرد من الطبقة الجديدة ، في ارتداء زي « آخر موضة » واهمال مضموناته المرافقة، من فكر تحليلي وتعمق علمي وشمول انساني .. دائما يكفي الشكل والتعلق بالشكل للحصول على مظهر « الحداثة » المطلوب بالحاح . ان هذا الانفلاش القومي والطبقي .. ان هذا التخلع والانخلاع يظهران اصلا في النتاج الشعري والقصصي لكل هؤلاء المتعلقين بالشكل ـ وذلك باسم القومية الاشتراكية طبعا ـ يظهر عن طريق الفجاجة الفنية والتفاهة الفكرية او الذاتية المتضخمة الى حد مرضي ، والهلوسات الشخصية الخالية من اي مضمون ـ الا من الشكل !!

لم يكن بامكان ممدوح عدوان او اي شاعر ـ ناقد مثله يصول ويجول ، دون رادع من ضمير ادبي ولا وعي تاريخي ـ لم يكن بامكان احد ان يصلب سليمان العيس الا على خشبة الشكل هذه .وكانت هذه الخشبة تنتظر انتهازيا صفيقا يعلق عليها سليمان العيس غير آبه لخدماته للحركة الوطنية والشعور القومي : وقد وجدته في شخص الشاعر ـ الناقد وفي شخص المحرر الادبي ، متكافلين متضامنين ،لا يحسبان حسابا الا للغبار الذي يثيرانه وهما يرمحان ..

ان الرسالة لا تحدد الموقف والمضمون الشعريين لدى كل شاعر قومي ، بل تحدد اجابة على سؤال لم يطرحه من الادباء العرب الا اقل من عشرة . هذا السؤال : لماذا اكتب ؟ وجواب سليمان العيس: أكتب الشعر لاقاتل به . « لست شاعرا لكنني مقاتل » هذا ما يقوله سليمان العيس عن نفسه ، لكن بليته انه يخاطب من لا يفهم ولا يرعوي ... انه يخاطب اطفالا يحلو لهم ان يتزيوا باحدث الاشكال وان يرشقوا بالحجارة من يطلب منهم هوياتهم .

ان (الشعر الحق) ـ بالاذن من « المحرر الادبي » في مجلة الطليعة ـ هو الشعر الذي يتحدث عن القيم . وينادي بصياغة الامة ومجتمعاتها بحسب قيم قومية وتقدمية معينة .. وان غثاثة معظم الشعر الحديث تنتج عن خلوه من القيم ، وعن طرحه لحالات فردية صرف دون خلع اية قيمة عليها . هذه الحالات اشبه بالاوضاع الجنسية المصورة، التي يزعم اصحابها والناظرون اليها انهم بها عرفوا الحياة الجنسية وابعادها !

ان سليمان العيس لا يحاكم من منطلق الشكل اولا ، ولا يحاكم من منطلق الشعر المقروء ثانيا . ولا يحاكم من منطلق الشعر الفردي ثالثا . فمنطقه الداخلي بحسب تكوينه الشخصي والتاريخي ، منطق الشعر القومي الجماعي الخطابي العمودي .. وان الجماهير العربية

بحاجة الى شاعرها : حاجتها الى قائدها ومفكرها .. فنحن امة تعتبر البلاغة معجزة ، ولم يبق من تراثها سوى الارض واللغة وجمالهما . وكل ذلك بحاجة الى تطوير ، لكن هذا التطوير لا يحثنا ابدا على الجفاء بمن كانوا امناء للامة والارض والتراث .علينا ان نحاسبهم بمنطقهم ولن نتحاسب فيما بيننا بمنطقنا ، والا كنا كأهل النار ، كلما جاءت امة لعنت اختها ، او كما فعل حيدر بعلي وزكريا..

★★★

حوار معقول

ثمة واحة للعقل في هذه الصحراء المجونة ، فبما ان ممدوح « عدوان » يوسع اعماله باستمرار (كان شاعرا ثم صحافيا ثم ناقدا وهو الان روائي) فقد كتب رواية بعنوان « الابتر » عن الارض السورية المحتلة . وقد تولاها بالنقد خلدون الشمعة . وانا معجب بنقد خلدون فهو يمتاز بوضوح القيم الفنية في ذهنه وسعة الاطلاع ودقة المقاييس . وبهذه الروح الموضوعية جدا تناول رواية ممدوح عدوان. ركز الناقد ملاحظاته في النقاط التالية :

اذن فنحن ازاء محاولة في الرواية ـ او القصة الطويلة ـ يكتبها شاعر شاب يتسلل بجرأة من ظل القصيدة الى ظهيرة الرواية . وفي هذا المنعطف الخطر بالذات نكمن ازمة هذه الرواية ، كما يمليها الانطباع الاخير الذي خرجت به ..

« يذكرني رواية ممدوح بقصة قصيرة لارنست همنغواي عنوانها « العجوز عند الجسر » . هذه القصة القصيرة جدا ترصد شخصية عجوز خلال الحرب العالمية ، لديه عدد من الحيوانات والطيور التي يحاول العناية بها والمحافظة عليها باعتبارها تمثل كل عالمه المفعم ببراءة طفولية عذبة . ولا ريب في ان ممدوح قد تمثل هذه القصة جيدا : فالبقرة في « الابتر » تقف مقابل « الجدي » في قصة « همنغواي » . وفقدان عجوز « همنغواي » للجدي معناه فقدان حياته او مبرر وجوده . اما عجوز (ممدوح) فهو يرى في بقرته التجسيد الحي لكل ما يكترث به من دنياه . لا بل انه يعرض حياته للخطر بسبب رفضه بيع البقرة للاسرائيليين الذين يستشفون من تعلقه بهاالمعنى الذي يؤكد ارتباطه بالارض ، واصراره على البقاء فيها .

« ـ لقد اختار (ممدوح) موضوعا شعريا بالدرجة الاولى . وبساطة الموضوع لا تضعه اطلاقا في المواقع المضادة للاساليب التي تستمد نسغ قوتها من الشعر .

« ـ انه في الوقت الذي يستعيض فيه همنغواي عن فقدان الطاقة التصويرية الشعرية بالاعتماد على خلق ايقاع داخلي يسري في شرايين الجملة الروائية لديه ، يلاحظ (انعدام الطاقة التصويرية الشعرية) و(الايقاع الداخلي) معا في جملة ممدوح .

« ـ لقد اختار ممدوح في (الحرب الخفية بين الاجيال) الانحياز الى الجيل الكهل ، الى ذلك الجيل الذي يتصرف تلقاء الاحداث والازمات باعتباره يمثل جزءا من الطبيعة ونظامها .. ولا يتصرف عن وعي لقضية احتلال ارض وطرد شعب وسلب حضارة وتصفية وجود فيزيولوجي ...

ان انحياز ممدوح للجيل الماضي ضد جيله واضح تماما ، وقد يدفع هو عن نفسه هذه التهمة بالاشارة الى شخصية الفدائي الشاب الذي ورد ذكره في الرواية ، الا انه لا مناص من الاعتراف بان الرواية ترصد اولا واخرا شخصية رجل عجوز اصبح وحيدا في قرية محتلة خاوية من السكان . الا اذا كان يريد ان يمضي بتمثله لهمنغواي شوطا ابعد . وهذا الضوء الباهر الذي يسلطه ممدوح على عجوز يقف وحيدا ضد اعتى واشرس قوة لا يمكن الا ان يؤكد على انحيازه اخلاقيا للجيل الكهل . او ـ اذا اردنا تحميل الموقف اكثر من ذلك ـ لا يمكن الا ان يؤكد على شعوره بافلاس الجيل الطالع الذي لم يبق منه احد في قرية (المنصورة) المفجوعة ..!»

ويبدو ان ممدوح يكون عاقلا او بالاصح معقولا اذا لم يكن مستفزا او في نيته ان يستفز احدا . فهو لا ينكر تأثره بهمنغواي ، ويقول انه بالرغم من صحة وقوع الاحداث في قرية المنصورة ، فالفنان مطالب بالاقناع وبتقديم حوادثه ضمن اطار فني مستوف لكل الشروط الضرورية . ويشير الى ان الصهاينة قد عاملوا هذا العجوز بشيء من اللطف لانه وحيد : اي انه ليس مصدر خطر . انه شيء عاجز بالنسبة اليهم . ثم يقول :

(يرى خلدون ان الرواية « تتويج رومانتيكي لبطولة الفرد » وهذا امر مدهش . ان ازمة ادريس منذ الصفحات الاولى في الرواية هي غياب الاخرين ، وتساؤله الملح دائما ، هو : اين هم ؟ لماذا لم يعودوا؟ متى يعودون ؟)

فما هي الفردية ـ التي تؤدي الى الرومانتيكية ـ ان لم تكن بالذات هذه الاوضاع وهذه الاسئلة وهذا الاصرار ؟

★★★

هذه صفحات عن مجريات الادب والنقد في القطر العربي السوري، وفي دمشق خاصة ، ولهذا السبب اكثرنا من الاقتباس ، بغية ان يكون القارىء البعيد فكرة عما يحكم الادب والادباء والنقاد من ميول ذاتية وجماح فردي .. ومع ذلك يبقى لنا الامل ببزوغ محاورات تعتمد توليد القيم في الفكر وفي الفن : « ان شاء الله » .

دمشق — محي الدين صبحي

★★★

العراق

اتحاد الادباء .. الى أين ؟

من مراسل « الآداب » : ماجد السامرائي

طوال سنين والجو الادبي في العراق مزحوم بافكار ثقافية وفكرية لا تعانق حتى شمس العصر الذي ولدت فيه .. فحين نقف امامها نتصور انفسنا في العصور المظلمة من تاريخ هذا القطر ، وكان روح ذلك العصر قد امتدت بها الى اناس لا يزالون يعيشون في عصرنا، ولكنهم منفصلون ، ثقافيا ، عن كل ما يحدث فيه ... وهي ـ اي تلك الافكار ـ في واقعها ليست اكثر من جدران مليئة بالنقوش الاثرية ، وباتت تخشى الانقراض والتداعي بعد تقادم هذا الزمن الطويل عليها. اما المدافعون عنها كـ « قيم فكرية عربية » ورثوها عن « السلف الصالح » ، فانهم يعتبرون دفاعهم ذاك من قبيل « الاخلاقية » .. وهي ليست مسألة اخلاقية على الاطلاق ، انما محاولة التشبث بـ «قاعدة رخوة » يجهدون انفسهم في سبيل المحافظة عليها لاستمرار وجودهم غير المعترف به ، اصلا .

وقد سعى « شيوخنا الاعزاء » و« تلامذتهم الامناء » بجد واجتهاد من اجل استمرار مثل هذا الوضع الادبي غير الطبيعي فترة طويلة من الزمن ، ساعدهم على ذلك ان اغلبهم في مراكز « السلطة الادبية »(1)،

١ ـ تجدر الاشارة هنا الى ان الوضع مع الادباء الشيوخ عندنا اخف حدة مما كان عليه الحال الى فترة قريبة في القاهرة .. حيث كان العقاد ومناصرو فكره يمارسون سلطتهم الادبية باسلوب جدانوفي ... فالحالة عندنا لم تصل في توترها الى مثل ذلك ، على الرغم مما حدث من امور قريبة في روحها واسلوبها .. والدليل الواضح على ذلك منشورات وزارة الثقافة والاعلام الى فترة قريبة ، حيث اقتصرت على نشر كتب ميتة ، مستبعدة ادب الشباب .. ثم المؤتمرات الادبية الدولية والتي يحضرها اناس ذوو صلة محدودة بالادب .. اضافة الى عملية سد الابواب بوجه الادب الجديد في اكثر من مجال من مجالات النشر .

الامر الذي سهل عليهم مسالة الوقوف بوجه « الخارجين على طاعتهم» الرافضين لفكرهم المدان بالتخلف ، ومقاييسهم الواضحة القصور ـ ان كانت ثمة مقاييس واضحة لديهم ...

في مثل هذا الجو الذي يعبق برائحة « البخور القديم » ،والذي يشبه تكايا الدراويش ، ولد جيل جديد ، وعى الحقيقة المرة لوضعه، وادرك ان مثل هذا المسار مسار مجتث ، ولا يمتلك دعائم وجود حقيقي .. بنفس الوقت الذي راى فيه هذا الجيل ان « الاصلاح » مسالة لا تعني الا « الترقيع » من ناحية ، والتواطوء والانتهازية ، من ناحيةاخرى ... فكان الرفض ، ثم الثورة هما السبيل الوحيد امامه لنسف جميع المرتكزات المتهرئة ، واقتلاع المنابر من ارضها .. كما هو الحال في معظم اقطار الوطن العربي .. على الرغم مما صاحب هذه الثورة من ادعاءات كثيرة كانت منفذا لتشكيك ، المشككين .

وقد لجا شيوخنا وتلامذتهم ـ حفظهم الله وابقاهم ذخرا لمتاحفنا ـ الى اساليب ارهابية ضد الجيل الجديد .. فكانت مناقشاتهم له تتخذ النهكم اسلوبا ، وفي بعض الاحيان تاتي بصيغ قريبة من صيغ « الفتاوىء الدينية » ، كان يكون الشعر الجديد في عرفهم « كفرا والحادا » ، والسير في طريق التجديد نوعا من « الضلال » ، وما الى ذلك من الاتهامات المتعكزة على كل ما هو واه من من الحجج غير المنطقية . وبرغم ذلك ، فان هذا الجيل استطاع ان يقول ما في ضميره دون تلكوء أو حيرة ، غير مكترث بما يقال ، وغير آبه بالمحاربات التي جابهها على مستوى النشر الرسمي في الداخل ، اضافة الى تكريس عدد من المجلات الرجعية التي اتخذت موقفا مضادا له .

ان الجيل الجديد من ادباء العراق تتجلى نشاطاته اكثر ما تتجلى في الشعر والقصة .. وهو جيل رافض لكل وصاية ادبية ،ويصل به الاعتداد بنفسه الى القول بانه هو القادر الوحيد على تحديد المعالم الادبية للمرحلة ...

ومهما يكن من امر الاتفاق او الاختلاف على ذلك ، فانه استطاع ان يقدم شيئا ، وان يضيف الكثير من المعطيات ، على الرغم من انه لم يقل كل ما عنده . وقد استطاع من خلال عطاءاته ان يستقطب اهتمام بعض ابناء الجيل السابق له ، والذي يختلف معه في الكثير مما يطرحه (٢) .

وغير خاف على كل متتبع للحياة الادبية في العراق انه قد سادتها في السنوات الاخيرة موجة من الفوضى ، تنازعت في دوامتها بعض الادباء الشباب ، واسلمتهم الى مسارات غير مرجوة .. فاغلقت امام بعضهم الطرق التي سبق لهم ان فتحوها . وكان ذلك مسالة شديدة السلبية حملت تاثيرها الى نتاجاتهم التي احتجت الكثير منها .. بينما كانت بداياتهم تدعو الى التفاؤل الحسن . ان عدم الاستمرار هذا اخرجهم من الساحة ، لا كاسماء ، وانما كعطاءات متفاعلة بشكل طبيعي مع الحياة الثقافية ، كان يمكن ان تساهم في بلورة الكثير من المفاهيم السائدة . ولعل ما يميز هذا الجيل من ادباء العراق انه جيل لم يكن يوما ما بلا صوت .. يحركه عاملان ، في الغالب .. هما : انتماؤه السياسي ، واختياره الثقافي والفكري .. فهو فياشد الظروف قسوة كان يتكلم ، مدللا على وجوده كجيل يلعب دورا في التاريخ العربي المعاصر .

اسوق هذه المقدمة كمدخل للحديث عن « اتحاد الادباء في العراق » الذي تم تشكيله مؤخرا ، بعد شهور وشهور قاربت السنتين من انتظار الولادة .

تشكلت الهيئة المؤسسة للاتحاد من : محمد مهدي الجواهري ،شفيق الكمالي ، حميد سعيد ، عزيز السيد جاسم ، مهدي المخزومي ، علي الشوك ، سامي مهدي ، حسب الشيخ جعفر ، يوسف الصائغ ، فؤاد التكرلي ، خالد علي مصطفى ، الفريد سمعان ، ونورالدين فارس .

وقد اكد النظام الداخلي للاتحاد انه يقبل « في عضويته الاشخاص الذين يمارسون العمل الادبي من الشعراء والقصاصين وكتاب المسرحية والنقاد الادبيين ، وكتاب المقالات الادبية ، ومؤرخي الادب ، ومترجميه والمختصين بالعلوم اللغوية » . (المادة الثانية) . ولخص الاهداف التي يسعى الاتحاد لتحقيقها (المادة الثالثة) في : العمل على رفع مستوى الادب والثقافة وتوجيه الفعاليات الثقافية والادبية نحو دعم النظام الجمهوري في العراق ، ومكافحة التيارات الرجعية والعنصرية والاستعمارية في ميدان الثقافة والادب ، والدفاع عن مبادىء حقوق الانسان والسلم والديمقراطية ، والعمل الى جانب الشعب في الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية من اجل وحدة الامة العربية وخدمة قضاياها المصيرية . الدفاع عن حقوق شعب فلسطين ورفض الوجود الصهيوني فيها . تشجيع النشاط الادبي والثقافي في العراق ، والعمل على تسهيل مهمة الادباء في نشر انتاجهم والتعريف به داخل العراق وخارجه . العمل على احياء التراث العربي الادبي والفكري وتطويره ليقوم بدوره المهم في حياتنا الثقافية والادبية ويحتل مكانه الذي يستحقه في التراث الانساني . تنمية العلاقات الادبية والثقافية بين ادباء العراق واشقائهم الادباء العرب في جميع انحاء الوطن العربي ، ودعم اتحاد الادباء العرب والاسهام في نشاطه والعمل على تطويره . تشجيع التبادل الادبي والثقافي في الاوساط الادبية التقدمية في انحاء العالم اجمع لاغناء ادبنا باروع ما خلفه التراث الانساني والمساعدة على تطويره وازدهاره . الدفاع عن شرف الكلمة واحترام وجود الانسان وحقوق الاخرين . ومكافحة الرياء الادبي والتزييف الفكري بمختلف اشكاله واساليبه . الدفاع عن حرية الاديب في التعبير والنشر والاطلاع والعقيدة وحمايته من كل انواع التعسف والاضطهاد والمضايقة بسبب رايه وعقيدته وموقفه الفني . مساندة الادباء المكافحين ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية وفي سبيل خدمة الانسانية في جميع انحاء الوطن العربي . حماية حقوق الملكية الادبية . الدفاع عن مصالح الكتاب المادية والمعنوية ومساعدتهم على توفير احسن الظروف ، وضمان حياتهم الحاضرة والمقبلة .

لقد كان الاحساس بالفراغ ، وبثقل جو المقاهي ومناقشاتها وسلبياتها شيئا رهيبا وقع فيه اغلب ادباء هذا الجيل رغما عنهم، نتيجة ظروف غير موضوعية كانت نتائجها اكبر مما تتحمل طاقاتهم .. فعرضتهم الى متاعب كثيرة .

ازاء هذا ، كان التطلع الى وجود للادباء اوجمعية تضمهم وتجمع شملهم المشتت يملأ تفكير الكثيرين .. بينما كان البعض الاخر ، وما يزال يائسا من جدوى مثل هذه التجمعات ، شاكا بقدرتها على عمل شيء ذي جدوى .

ومهما يكن من امر اختلاف الراي هذا ، فانه ، ولا شك ، سينقذ الحياة الادبية في العراق من اسارها ، شريطة ان يتوفر جو من الانسجام والتوافق والديمقراطية يحيط الاتحاد .. اذ يمكن بهذا الشكل ان يكون منعطفا جديدا في طريق جديدة تتحدد من خلالها معالم مسيرة ادبية واضحة ..

ولكن هذا الامر مرهون بامور عديدة ، لعل ابرزها :

● ضرورة الانطلاق من ارضية واضحة وصلبة في تحديد معالم مسيرة الاتحاد .. اذ لا تاثير له في حالة عدم حصول تفاعل حقيقي وجاد بين اعضائه ، بحيث يساعد على ايجاد جو فكري سليم ، ومناخ صحي يمكن للادب الحقيقي ان يتنفس فيه .

● تعقب ذلك مسالة توسيع نشاطات الاتحاد ، بعقد الندوات والامسيات بشكل مستمر ، مع ضرورة مراعاة امور كثيرة في موضوع الامسيات والندوات هذه ، بما في ذلك تنظيمها ، وموضوعاتها ، لتكون

---

٢ ـ يمكن ان نذكر بهذا الشان الدكتور علي جواد الطاهر ، واهتماماته الجادة بمتابعة النتاجات الجديدة ، في رصدها والكتابة عنها .

قادرة على تحريك الجو تحريكا فعليا ، ونقل صداها الى خارج مبنى الاتحاد (٣) .. اضافة الى اصدار مجلة خاصة به ، ودوريات تصدر عنه بصورة منتظمة ، يطرح من خلالها ادبا مميزا له خصائصه الجديدة التي تنسجم والاهداف التي ثبتها الاتحاد في نظامه الداخلي .

● ندعيم المواقع الادبية الجديدة ، عن طريق الاهتمام بالادباء الشباب ، وتبني نشر نتاجاتهم ... واعتقد ان هذا العمل وحده كفيل بانقاذ الاديب العراقي من الكثير من الهموم الملازمة له ، وفي مقدمتها مسالة النشر والتوزيع .. اضافة الى ان ذلك سيفسح المجال كله لظهور اشكال جديدة ، لعل عدم ظهورها في شكل كتب حال دون تشخيصها تشخيصا صحيحا .

● ان قيام الاتحاد في هذه الفترة يضعه امام اختيار صعب.. فهو اما ان يتجاوز ما هو كائن ، عاملا على ترسيخ مواقع حياة ادبية جادة ، تكون كفيلة باخراج الادب من كل الظروف المحاط بها والتي تحد من انتشاره ، وانتشال الاديب العراقي من وضعه المربك، بانقاذه من مشاكله .. واما ان يظل ـ الاتحاد ـ يدور في حلقة مفرغة ، ويطل من نافذة لا تقع امامها الا ارض بوار ، سبخة . وفي ذلك انهاء فعلي لكل دور يمكن ان يقوم بتاديته على مسرح الحياة الثقافية . وبهذا يصبح وجوده غير مبرر ... (وليس هذا سوى تحذير من مغبة أمر آمل ان لا تقود الاقدام الى طريقه .. فالاتحاد الذي قام مع كثير من الحماس ، ومع كثير من العمل المتواصل،عليه ان يحافظ على ذاك الحماس ، وجدية العمل) .

● ثم ان امام الاتحاد تجربتين سابقتين في هذا المجال ، يمكنه الاستفادة منهما في طريق مسيرته الجديدة .. فهناك تجربة « اتحاد الادباء العراقيين » الذي تم حله في اعقاب ثورة رمضان عام ١٩٦٣ .. والتجربة الخائبة لجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين ، المعتمدة على « التجميع الكمي » . فمن خلال دراسة هاتين التجربتين يمكن التوصل الى صيغة جديدة تتجاوزهما ، وتعطي الاتحاد شخصية متميزة .

● لقد ضم الاتحاد ، وسيضم اكبر مجموعة من الادباءالشباب، الى جانب جيل الوسط ، وقلة من سابقيهم .. ولكل من هؤلاء آراؤه التي قد تصل حد التطرف في احيان كثيرة لهذه القضية او تلك ، والتي كثيرا ما نشب الخلاف حولها في الصحف والمجلات .. وهذا الامر ، بحد ذاته ، يتطلب من الجميع وعيا كافيا بمسؤوليتهم الادبية، لكي لا تصبح ندوات الاتحاد وامسياته مجال تناحر واستفزاز .

● هذا من ناحية .. ومن ناحية ثانية فان على الاتحاد ان يجعل من نشاطاته الداخلية ميدانا للتفاعل الحي بين اعضائه ، بحيث يكون ملتقى فكريا يمكن ان يحمل اشعاعاته الى كل مجالات الحياة الثقافية في القطر ، ليكون البديل الافضل لكل المؤسسات الثقافية التي لم تستطع تحريك الجو الادبي من خلال وجودها ،او حتى تقديم شيء ذي بال .

غير ان الاتحاد ، حتى الآن، وعلى الرغم من مرور اكثر من خمسة اشهر على تشكيله لم يتحرك التحرك المفترض في اي من هذه المجالات .. مما يدلل على خمول وتواكل ، أخشى ان يستمر ، فيؤدي استمراره الى سقوط التجربة .

ماجد السامرائي

بغداد

---

٣ ـ اذكر بالمقارنة الامسية الشعرية التي دعا اليها ونظمها الاتحاد الوطني لطلبة العراق في كلية الآداب في شهر نيسان الماضي، وما اثارته من مناقشات في الصحف والمجلات لجرأة ما القي فيها من شعر تخطى روتين الامسيات .

صدر حديثا

التكسب بالشعر

في العصر الجاهلي

تأليف

الدكتور جلال الخياط

تأطير وتجميع وحصر لظاهرة التكسب بالشعر منذ العصر الجاهلي حتى الوقت الحاضر .

لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق،ولقد مشيت حتى انتعلت الدم ، وحتى تمنيت ان وجهي حذاء لقدمي .. أفلا رجل يرحم ابن السبيل ؟ ـ شاعر ـ

✶

اوصيك بالمسألة ، فانها تجارة لن تبور .
ـ الحطيئة ـ

✶

والله لكأني على النار اذا دخلت على الخلفاء والملوك لاني اذا كنت عندهم فلا أملك من امري شيئا . ـ ابو نواس ـ

✶

شاعر « العزيز » وما بالقليل ذا اللقب
ـ شوقي ـ

✶

اصطناع الرجال صناعة قائمة بذاتها .

✶

نهى الخليفة عمر (رض) الحطيئة عن الهجاء قائلا : « اياك وهجاء الناس . قال : اذن يموت عيالي جوعا ، هذا مكسبي ومنه معاشي » .

✶

المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم .

حلف عمران بن حطان ان لا يكذب في شعر
باعة الشعر اكثر من عدد الشعر .
ـ الصاحب بن عباد ـ

✶

وقال الامين لابي نواس : انت تتكسب بشعرك اوساخ ايدي جميع الناس .

✶

خلصني ايها الرجل من التكفف ، انقذني من لبس الفقر ، اطلقني من قيد الضر ،اشترني بالاحسان ، اعتبدني بالشكر،استعمل لساني بفنون المدح ، اكفني مؤونة الغداء والعشاء .
ـ ابوحيان التوحيدي ـ

✶

انا لا امدح الرجال انما امدح النساء ـ عمر بن ابي ربيعة ـ

✶

الشعراء المداح لم يخلقوا بلا معدة . ـ زكي مبارك ـ

✶

ايها الكهل اني اجلك عن الشعر فسل حاجتك
ـ الفضل المسلم ـ بن الوليد ـ

منشورات دار الآداب ـ بيروت